بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دعتنى — مشكورةً — جامعةُ بيروت العربية لإلقاء ثمانى محاضرات بها على طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب فى تاريخ البلاغة وتطورها ، فتهيأتْ لى بذلك فرصتان كريمتان : فرصة لقاء مجموعة من الشباب الجامعى يُعَدُّون مناط الآمال ومعقد الرجاء فى هذا الركن من أركان بلادنا العربية العتيدة ، وفرصة ثانية هى درس بلاغتنا درسًا منظمًا بحيث ترتَّب حياتها على منازل التاريخ وبحيث تتضح معالم تطورها فى كل منزلة من دورة زمنية إلى دورة ومن جيل إلى جيل . وقد عكفت على هذا الدرس أقرأ وأستوعب حتى استقام لى ما ابتغيت بقدر وسعى وجهدى .

وبدا لى بعد إلقائى هذه المحاضرات أن أتوسع فيها توسعًا يبسط هذا التاريخ الذى تمثلتُه لبلاغتنا وما طُوى فيه من تطور ، جعلها تتنقل فى أربع مراحل ، هى : مراحل النشأة والنمو والازدهار والذبول ، فقد بدأتْ فى شكل ملاحظات بسيطة كان ينثرها العرب فى الجاهلية . وأخذت هذه الملاحظات تكثر مع رقى الحياة العقلية العربية بعد الإسلام . ولمستها فى العصر العباسى عصا الحضارة والثقافات السحريةُ ، فإذا هى تَعْمُقُ ، وإذا طوائف من الشعراء والكتّاب واللغويين والمتكلمين تدعمها دعماً ، ونفذ الأخيرون إلى وضع أصولها الأولى بعقولهم الثاقبة اللطيفة .

ونشطتْ بيئات مختلفة فى تنمية مباحثها ، منها المحافظ المسرف فى محافظته ، ومنها المجدد المسرف فى تجديده حتى ليحاول أن يُخْضعها لمقاييس البلاغة اليونانية . وسرعان ما وضع ابن المعتز أول كتاب فى البديع ، ويضيف قدامة المتفلسف إلى بديعه فنونًا جديدة . ويواصل المتكلمون مباحثهم فى الإعجاز البلاغى للقرآن راسمين حدودَ كثيرٍ من الصور البيانية والبلاغية وفروعها المتشعبة . ويذهب القاضى عبد الجبار إلى أن هذا الإعجاز إنما يَكْمُنُ فى الأداء والأسلوب والنسب النحوية

للكلام . ويحتكم أصحاب النقد فى كثير من مباحثهم إلى الأصول البيانية والبديعية . ويصنف بعض الأدباء فى صناعة الشعر والنثر مصنفات تجمع فى قَوْسِها صور البيان والبديع ، وأعدَّ ذلك كله لنمو مباحث البلاغة نموًّا واسعًا .

وتزدهر هذه المباحث وتونق وتُؤْتِى ثمارها اليانعة على يد عبد القاهر الجرجانى إذ استطاع بعبقريته الفذة أن يضع علمى المعانى والبيان وضعًا دقيقًا ، وقد استضاء فى أولهما بفكرة القاضى عبد الجبار السالفة ، فإذا هو يستكشف لأول مرة هذا العلم ، وإذا هو يصوغه صياغة تَنْبِضُ بالحياة . ومضى يجمع ملاحظات سابقيه فى علم البيان وأخضعها لضرب من التحليل العقلى والنفسى البصير ، وسوَّى منها نظرية مرتبة مفصلة ، تضمُّ أجزاءها المتفرقة ، وتصور دقائقها الغامضة . وخلفه الزمخشرى يطبق تطبيقًا رائعًا قواعد العِلْمين جميعًا فى تفسيره لآى الذكر الحكيم ، مضيفًا إليهما من لفتاته الذهنية البارعة ونظراته التامة النافذة ما جعلهما يبلغان حدَّ الكمال .

وندخل فى عصور الملخَّصات والشروح والتعقيد والجمود ، ويضع الفخر الرازى أول ملخص لمباحث عبد القاهر جامعاً بعض فنون البديع ومُضْفِيًا على ملخصه من الفلسفة والمنطق والكلام ما عقَّده به تعقيداً . ويلخص بعده السكاكى عبد القاهر والزمخشرى مفيداً من تلخيصه فى صورة أشد إجمالا وتعقيداً مثَّلها فى القسم الثالث من كتابه « المفتاح » . وتوالت الشروح تفك معميات هذا التلخيص . وتلقانا أسراب تنحرف عن هذا الاتجاه ولكنها لا تكاد تضيف جديداً . ويلخص الخطيب القزوينى مختصر السكاكى ، ويَذيع تلخيصه وتَكْثُر الشروح عليه مليئة بأعشاب ضارة من الفلسفة والمنطق والكلام والأصول والنحو ومن مناقشات لفظية ، حتى لتختنق البلاغة اختناقًا . ويتكاثر التصنيف فى البديع وتلخَّص فنونه التى بلغت نحو مائة وخمسين أو تزيد فى قصائد سمَّوها البديعيات ، ويُضْطرون إلى شرحها فى صورة مكرَّرة مملة .

ولم تكن غايتى أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب ، بل أيضًا أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا فى تطورهما حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل ، وأن أرسم فى تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغى وسابقه ولاحقه ، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتضاحًا تامًّا . وقد وقفت فى الخاتمة

أصور الأسباب التى جعلت أسلافنا لا يهتمون فى البلاغة بشىء وراء الكلمة والجملة والصورة ، ذاهبًا إلى أنه ينبغى فى تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة وفنون الأدب المختلفة حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه ، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغى القيم الذى أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية ومقوماتها البيانية والبلاغية . والله أسأل أن يلهمنى السَّداد فى القول والإخلاص فى الفكر والعمل ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل .

القاهرة فى ١٥ من فبراير سنة ١٩٦٥ م .

شوقى ضيف

Obeikandl.com